أوضاع أهل الذمة في الجزائر العثمانية من خلال "المجلة الإفريقية"

أ/ عبد الجليل رحموني/ جامعة قسنطينة(02)

ملخص:

يندرج هذا الموضوع ضمن الموضوعات المتعلقة بالمجلة الإفريقية المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) هذه الأخيرة التي تعتبر من أهم المجلات التاريخية أصدرتها السُلطات الاستعمارية الفرنسية من خلال الجمعية التاريخية الجزائرية (Société d'Histoire Algérienne)، صدر العدد الأول منها في أكتوبر 1856، وتلاه العدد الثاني في شهر ديسمبر كانون الأول من نفس السنة، و استمرت في الصدور إلى غاية 1962. آخر مجلداتها هو المجلد رقم 106، ولم تتوقف عن الصدور سوى في الحرب العالمية الأولى من 1914 إلى 1918، وسنحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على فئة اليهود والنصارى المسيحيين، والتركيز على أوضاعهم المعيشية والصحية في الجزائر العثمانية وهذا انطلاقا مما خطته أقلام كتاب المجلة الإفريقية (La Revue Africaine).

Résumé:

Cette Recherche Parler de La situation des juifs et des chrétiens à travers La Revue Africaine est une revue académique française annuelle. Publiée par les autorités de l'occupation par l'intermédiaire de «La Société Historique Algérienne». Son premier numéro a été publié en Octobre 1856, et elle a

Continué son processus jusqu'à la publication du dernier numéro, qui est le 106 en 1962. Sa publication n'a pas été interrompue, sauf pendent la Première Guerre mondiale 1914 à 1918, Dans cet article, nous tenterons de définir la société Historique algérienne et le but de sa création.

تمهيد:

فتحت إيالة الجزائر وكغيرها من المناطق الكبرى التابعة للدولة العثمانية أزرعها للعديد من الفئات الاجتماعية مثلت غالبيتهم من العرب الأمازيغ والأندلسيين والأتراك العثمانيين، والكراغلة، وتعتبر فئة اليهود والنصارى المسيحيين، من أهم الفئات الاجتماعية التي عرفت تواجد كبيرا في الجزائر خلال العهد العثماني، ومن هذا المنطلق كيف عاش اليهود والرعايا المسيحيون إلى جانب السكان المحليين في مجتمع واحد؟ وكيف كانت معاملة الحكام العثمانيون لأهل الذمة ؟

أولا: فئة اليهود:

توجه اليهود إلى إفريقيا الشمالية مُنذ الاحتلال الروماني للقدس،[1] وبدءوا يتوافدون من كل مكان، وكانت أول الموجات اليهودية تلك التي قدمت من إسبانيا، وقد حصلوا على إذن الهجرة من خير الدين باشا وسمح لهم بالإقامة في المدن مثل تلمسان،[2] ووهران، و بوسعادة، وغيرها.[3]

انقسم اليهود في الجزائر من حيث أُصولهم إلى قسمين، فهناك يهود أصليون، وتعود أُصولهم إلى فترات سابقة للإسلام، أو الذين اعتنقوا اليهودية من أهالي البلاد، ويطلق

على هذا الصنف يهود "توشابيم"(Résidents) ، والصنف الثاني الذين هاجروا إلى شمال إفريقيا مع المهاجرين الموريسكيين المطرودين هروبا من اضطهاد النصارى عرفوا باليهود الأجانب (Fostareros)، ثم انضمَّ إليهم يهود ليفورن الإيطالية بعد منتصف القرن 17م.[4]

كان لليهود شأن في الحياة السياسية والاقتصادية سرعان ما أخذت تزداد أهميتهم على مر الأيام، وقد سمح لهم خير الدين بالإقامة مقابل ذلك دفع ضريبة، أمَّا عن أعداد هذه الفئة فيخبرنا هايدوا « Haedo » أن 150 أسرة يهودية كانت تسكن الجزائر نهاية القرن 16م، وقدر الأب دان « Dan » عددهم سنة 1634م بـ 10000 يهودي، أما لوجي دوتاسي « de Tassy » فقد قدرها سنة 1725م بـ 15000 يهودي،[5] في حين قدر عددهم مولاي بلحميسي في القرن 18م بأكثر من 8000 يهودي في مدينة الجزائر وحدها قادمين من إفريقيا، و آسيا، وأوروبا، هذا علاوة على اليهود الأصليين.[6] أما نوع لباس هذه الطائفة فقد فُرض عليهم الأبيض أو الداكن وقد بررت المجلة الإفريقية(La Revue Africaine)سبب اختيار هذا النوع من اللباس حتى يتمكن الحُكام العثمانيين التعرف عليهم بكل سهولة، ومراقبة تحركاتهم لأنهم كانوا مصدر العديد من القلاقل والبلابل.[7]

ومن أهم اليهود الأوروبيين الذين كان لهم شأن كبير في مدينة الجزائر هم اليهود الليفونيون أمثال عائلتي "بكري" و "بوشناق"، اللَّذان لعبا دوراً هاماً في الحياة السياسية، و الاقتصادية لإيالة الجزائر، والجدير بالذكر فإن هؤلاء اليهود قاموا علاقات مع الحكام العثمانيين، فحصلوا على امتيازات كبيرة إذْ لم تفرض عليهم قيود أو ضرائب كبيرة في الموانئ والمدن الساحلية،[8] كما مُنحت لهم أحياء يسكنون فيها، وكانت تلك الأحياء

مجهزة بكل المرافق الضرورية للعيش، فكانت مجهزة بالمذابح، والمعابد التي كانوا يجتمعون فيها كل سبت.[9]

كما احتضنت عدة مدن جزائرية مثل قسنطينة، والمدية، و بوسعادة عائلات يهودية، و انتشرت بعض العائلات في المناطق الريفية، لكن لم يكن يسمح لهم بامتلاك الأراضي، ولعل هذا ما يفسر اهتمامهم بالتجارة[10] وممارسة الأنشطة الحرفية، وفي هذا الصدد يقول لوجي دو تاسي « de Tassy » :" فكثير من هؤلاء اليهود قد مارسوا عدة أنشطة ثانوية غير مربحة فنجدهم تجار متجولين، أو حدادين، أو خياطين، وما شابه ذلك".[11] وفي الجدول الموالي نقوم بإحصاء أعدد سُكان اليهود خلال الفترة العثمانية.[14]

الرقم	السنة	عدد سكان اليهود
01	1580	60,000 ن
02	1634	100,000 ن
03	1651	160,000 ن
04	1725	1000,000 ن
05	1731	150,00 ن
06	1788	50,000 ن
07	1789	50,000 ن

08	1818	30,000 ن

ومع بمرور الزمن أصبحت هذه الجالية تشكل خطراً كبيراً ليس في الجزائر فحسب بل حتى على شمال إفريقيا،[12] لذلك مُنعوا من حمل السلاح والتجول به،[13]

وهكذا أصبح لهؤلاء اليهود تأثيرا كبيرا لدى الداي، وأصبحوا يُشكلون منافسة خطيرة على السكان المحليين، وحتى على التجار الفرنسيين، فأصبحوا يمثلون المرجعية الحقيقية للداي من أجل المساعدة المالية،[15] و يعاملون الرعية بالغش والاحتيال، وقد وجدوا المساعدة من بعض الحكام العثمانيين أمثال مصطفى باشا، وتُشير المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) أن بوشناق كاد يصبح ملك القصر إن لم توقفه رصاصة بندقية أحد جنود الإنكشارية.[16]

وهكذا بالرغم من العناية والرعاية والحرية التي كان اليهود يتمتعون بها في الجزائر العثمانية مُنذ وقت مبكر فإنهم لم يكونوا يشعرون في يوم من الأيام بانتمائهم إلى هذه البلاد، فكانوا دائما يفضلون مصلحتهم الخاصة على مصلحة الرعية، وأن علاقة الجالية اليهودية بالمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني لا تعدوا أن تكون علاقة تجارية منفعية أكثر منها روحية وعضوية.[17]

ثانيا: النصارى المسيحيون:

تُعتبر هذه الفئة دخيلة على المجتمع الجزائري شأنها شأن فئة اليهود، فهي بدورها انقسمت إلى قسمين قسم يشمل الأوروبيين الأحرار أو الطلقاء، فكانوا إما قناصل أو موظفين أو تجار، والقسم الثاني يشمل الأسرى المسيحيين:

- **المسيحيون الأحرار:**

عدد هذه الفئة ضئيل جداً، فقد تمثلوا عموماً في القناصل والتجار الأوروبيين، فالمصادر الأجنبية بما فيها المجلة الإفريقية (La Revue Africaine)لم تولي اهتماما كبيرا لهذه الفئة، فكان تركيزهم منصبا على الأسرى، فقد ارتبط تواجد هؤلاء الأوروبيين بالوضع العام للبحر المتوسط، ذلك أن كل ما توترت العلاقة بين الجزائر والدول الأوروبية واشتدت أعمال القرصنة أثَّر ذلك بشكل مباشرا على حركة وقدوم هؤلاء الأوربيين.

شكَّل القناصل والوكلاء الأوروبيون مجتمعا خاصا بهم، عاش طوال حياته في كنف التسامح الإسلامي، وقد أُعجب شالر« Shaler » بذلك بقوله:" إن شاء القدر لشغل منصب غير المنصب الذي أشغله حاليا في الجزائر فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطيبة".[18]

لم يكن استقرا الأوروبيين في المدن الجزائرية طويلا، فكانوا يعودون إلى بلدانهم فور انتهاء مهامهم، فكانت تُقيد أسماءهم في سجلات قنصليتهم، ثم يلتحقوا بجاليتهم الموجودة في المدينة.[19]

فقد خُصص لهؤلاء القناصل[20] الموجودين بالجزائر يوم من كل شهر يقومون خلاله بطرح انشغالاتهم و اهتماماتهم وهذا كنوع من الامتياز.[21]

إلى جانب دورهم الرسمي الدبلوماسي فإن بعض القناصل قاموا بالتجسس لصالح حكوماتهم، وذلك لإعداد مشاريع لغزو الجزائر وغالبا ما تسببت تلك الأدوار في توتر العلاقات مابين الجزائر والدول الأوروبية،[22] وهذا ما انعكس سلبا على إيالة الجزائر نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما قام به القنصل دوفال « Deval » الذي تسبب

في تأزم العلاقات الجزائرية–الفرنسية والتي انتهت بالاحتلال الفرنسي للجزائر،[23] والشيء نفس قام به القس غراماي « Gramaye » الذي أعد مشروعا حرَّض فيه الحكومات الأوروبية على غزو الدول المغربية تونس، والجزائر، وطرابلس الغرب، والقضاء على الأتراك العثمانيين.[24]

لكنهم كثيرا ما كانوا يلجئون إلى قنصليتهم لتسوية وضعيتهم عند حدوث أي خلاف أو توتر،[25] وكان الدور الأساسي الذي يقوم به القناصل هو حماية المصالح البحرية، وسلامة أساطيلهم في البحر الأبيض المتوسط، وحماية رعايا دولهم، وحماية المبادلات التجارية بين بلدانهم والجزائر.[26]

- **الأسرى المسيحيون:**

أما الفئة الثانية من الأوروبيين فقد شملت الأسرى المسيحيين[27] التي تعود أصولهم إلى أمريكا والدول الأوروبية، فكانت تنقلهم السفن الجزائرية بعد انهزامهم في المعارك،[28] أما عن أوضاع هؤلاء الأسرى فكانت تختلف من أسيرا إلى آخر فقد مثلوا أغلبية الأوروبيين، فكانت وضعيتهم حسنة إذا ما قورنت بأوضاع الأسرى المسلمين في الدول الأوربية.[29]

و انطلاقاً من هذه الشهادة المذكورة يمكن القول بأن الأسرى المسيحيين في الجزائر كانوا يُعاملون معاملة أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها حسنة، بينما نجد الأسرى المسلمين في الدول الأوربية يُعاملون معاملة قاسية وهمجية، وتجدر الإشارة أن هؤلاء الأسرى المسيحيين سُمح لهم بتقليد بعض المناصب في قصر الداي أو عند المسؤلين.[30]

وتشير المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) أن هؤلاء الأسرى قد خُصصت لهم مراكز وأماكن، وكان يُكلف من هؤلاء الأسرى من يحسن القراءة والكتابة لتدوين الأحداث يسمى "الكاتب الكبير"، وبعد مدة زمنية بإمكانه شراء ذمته نظير للخدمة التي قام بها، فقد كلف الحكام العثمانيون بتعيين شخصية عسكرية لتسيير مراكز هؤلاء الأسرى والذي يدعى "الحارس باشا"، وهو برتبة ضابط عسكري يسهر على حسن تسيير هذه المراكز، كما يقوم بتوزيع المهام على الأسرى، وكان يوجد في مدينة الجزائر أكبر مركز لهؤلاء الأسرى يسمى: "سجن البايلك"، أما المركز الثاني الأقل أهمية منه هو سجن سيدي حمودة نسبة إلى ولي صالح.(31)

وتُخبرنا المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) بحقيقة تُثير الدهشة مفادها أن الحكام العثمانيين كانوا يمنعون هؤلاء الأسرى الدخول في الإسلام عكس اليهود، بل وصل الحد بهم إلى معاقبة من يفكر بالدخول في الإسلام.

السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: ما هو غرض الحكام العثمانيين من إبقاء هؤلاء المسيحيين على ديانتهم؟، ويعود السبب حسب ما تذكره المجلة دائماً إلى رغبة البايات في الحصول على المزيد من الأموال من هؤلاء المسيحيين ماداموا أهل الذمة، لكن إذا اعتنقوا الإسلام تسقط الضرائب عليهم ويخرجوا من دائرة أهل الذمة، وهكذا جعل البايات من هؤلاء المسيحيين مصدرا لكسب الرزق و الثراء.

أما عن أعداد هؤلاء الأسرى فقد قُدر بين سنتي 1787-1788 بـ 2000 أسير، وقد شهدت هذه الفترة ظهور الطاعون الذي لم يستثنِ حتى الأسرى الأوروبيين،(32) ويخبرنا الراهب الأب بيار دان« Dan » أنه كان حوالي 25000 من الأرقاء الذكور،

و1000 من الإناث في الجزائر خلال الثلاثينيات من القرن 17م، كما يفيد أحد الملاحظين بأن عدد الرق المسيحيين الذين كانوا يباعون في أسواق مدينة الجزائر بين 1520 و 1660 كان يتراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف نسمة،[33] أما دي غرامون « de Grammont» فقد قدر عددهم أواخر القرن 18م بنسبة لا تتجاوز 3000 أسير.[34]

إلى جانب الطاعون كان هناك سبب آخر أدى إلى انخفاض عدد هؤلاء الأسرى هو عقد معاهدة بين الجزائر والو.م.أ والدول الأوروبية، لتشهد أعدادهم ارتفاعا في مطلع القرن 19م، ويرجع ذلك إلى ازدهار البحرية الجزائرية، هذا فضلا على انشغال أوروبا بحروبها القارية خلال 1802-1815م مما سمح للبحارة الجزائريين الاستيلاء على العديد من السفن الأوروبية.[35]

كان البايات عند زيارتهم إلى إيالة الجزائر يجلبون معهم الأسرى من 70 إلى 80 أسير ويقدمونهم إلى الدايات كهدايا، أما بالنسبة لأوضاع هؤلاء الأسرى كان المحظوظ منهم يعمل في قصر الداي لأنهم كانوا يعيشون حياة رفاهية،[36] وهناك من اشتغل بالحِرف كالحدادة، والبناء، والنجارة، أما أولئك الذين لا يملكون حِرفا فإنهم كانوا يقومون بأعمال أُخرى كنقل الحجارة خارج المدينة أو شحن السفن وإفراغها من السلع والبضائع وغيرها من الأعمال الأخرى.[37]

وكان هناك قانون صارم يمنع خروج أي أسير أو تنقله خارج أسوار مدينة الجزائر دون إذن مسبق، أما بالنسبة لنوع الغذاء الذي كان يُقدم للأسرى فكان عبارة عن 4

قطع خبز، وكان بإمكان الأسير افتداء نفسه إذا امتلك المبلغ المحدد لذلك،[38] أما إذا كان من الشخصيات المهمة فإن فديته تتضاعف.[39]

كما كانت تتدخل بعض الدول لافتداء أسراها مثل ما فعلت نابولي التي قامت بدفع أموال طائلة لتحرير ربان السفينتين بينما تجاهلت بقية البحارة، وقد ساهم رجال الدين أيضا في تحرير الأسرى فكانت المفاوضات تقام بين الإيالة الجزائرية والدول الأوروبية حول تبادل الأسرى.[40]

انطلاقا مما سبق يتبن لنا بوضوحا تاما بأن كتاب المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) وعلى غرار الكتاب المستشرقون قد بالغوا في الحديث عن الأوضاع السيئة التي كان اليهود والنصارى المسيحيين يتلقونها في إيالة الجزائر وأسهبوا الحديث حول قضية استعباد النصارى وظروف إقامتهم وما كانوا يتلقونه من أوجاع وآلام وتناسوا تسامع المجتمع الجزائري وتفاعله مع مختلف الأعراق والأجناس، فقد عاش أهل الذمة من يهود ومسيحيين إلى جانب السكان المحليين في مجتمع واحد تظللهم سماء الحرية والتعاون، وقد أدى هذا التسامح إلى دخول أعداد كبيرة من اليهود والمسيحيين في الدين الإسلامي، ويعتبر العلج مثال واضح على ذلك.

الهوامش:

(1) كان هذا الاحتلال نكبة وخيمة على اليهود، فقد أكد المؤرخ "جوزيف" « Djouzif » أن حوالي 100000 يهودي تم أسرهم، وكان الإمبراطور الروماني يقوم بتقديم مجموعة منهم للحيوانات المفترسة كل يوم، وتشتت منهم الناجون منهم حول العالم. ينظر: Arnaud, « Histoire de L'Afrique Septentrionale » R .Af, n°23, Alger, 1879, p46.

(2) للإطلاع أكثر حول الهجرة اليهودية إلى تلمسان والاستقرار بها ينظر:

Darmon, « Origine et Constitution de La Communia Ute Israelite de Tlemcen », R .Af, n°14, Alger, 1870, pp376-383.

(3) عزيز سامح ألثر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط 1، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص408.

(4)أحمد سلطاني، التجارة والتجار في مدينة الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية 1792-1830، مذكرة ماجستير، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2011-2012، ص17.

(5) أحمد السليماني، تاريخ مدينة الجزائر، د. م. ج، الجزائر، 1989م، ص 37.

(6) Moulay (B), Alger L'Europe et La guerre Secrète (1518-1830), Alger, Editions Dahl ab, p38.

(7) Berbrugger (A), « Conquête d'Oran », R .Af, n°10, Alger, 1866, p47.

(8) Nacereddine (Saidouni), L'algérois Rural à La Fin de L'époque Ottomane (1791-1830), Liban, Dar Al-Gharb Al-Islami, 2001, p413.

(9) Haedo (F .de Diego), « Topographie et Histoire Générale d'Alger », R .Af, n°15, Alger, 1871, p 91.

(10) IucetteV (alensi), Le Maghreb Avant La Prise d'Alger (1790-1830), France, Flammarion, 1969, p27.

(11) بن عتو بلبروات، "المهاجرون والمهجرون إلى الجزائر العثمانية بين الانعزال و الاندماج الاجتماعي"، مجلة المواقف، ع04، الرشاد ، معسكر، ديسمبر 2009، ص65.

(12) Andre (Chouraqui), La Saga Des Juifs en Afrique de Nord, France, Librairie Hachette, 1972, p111.

(13) Le baron (Henbi), « Notice Sur Bou Saada », R .Af, n°6, Alger, 1862, pp 50-51.

(14) Eisenbeth (M), « Les juifs en Algérie et en Tunisie à le poque Turque 1516 -1830», R .Af, n°96, Alger, 1952, p 150.

(15) جون ب وولف، الجزائر و أروبا 1500-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، ط خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص426.

(16) Berbrugger (A), « L'affaire Bakri », R .Af, n°13, Alger, 1869, p63.

(17) محمد الزين، الأوضاع الاجتماعية والصحية في الجزائر العثمانية (1518-1830)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2010-2011، ص104.

(18) حميد أيت حبوش، المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني على ضوء المصادر الأوروبية 1519-1830، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2008-2009، ص70.

(19) Devoulx (A), « Relevé des Princip Aux Français qui Ont Résidé à Alger de 1686 a 1830 », R .Af, n°16, Alger, 1872, p356.

(20) حول موضوع القنصلية والقناصل الأجانب بمدينة الجزائر راجع:

Berbrugger (A), « Un Consul Alger au 18 Siècle », R .Af, n°6, Alger, 1862, pp 332-348.

Devoulx (A), « Querelle Entre Consul et Négociant », R .Af, n°15, Alger, 1871, pp261-270.

, «Germain Chancelier de Consulat de France à Alger », R .Af, n°15, Alger, 1871, pp 415-419.

de Grammont, « Correspondance de Consuls d'Alger », R .Af, n°32, Alger, 1888, pp 52-80.

Pestemal (A), « Le Consulat Français d'Oran de 1732 a 1754 », R .Af, n°86, Alger, 1944, pp 220-254.

Sacerdoti (S), « La Mission à Alger de Consul de Venise Nicolas Rosalem 1753-1754 », R .Af, n°96, Alger, 1952, pp 64 a104.

(21) de Paradis (Venture), Tunis et Alger au XVlll e Siècle, paris, Sindbad, 1983, p 239.

(22) الزين محمد، المرجع السابق، ص 108.

(23) de Paradis (V), Tunis et Alger au xvllle Siècle, paris, Sindbad, 1983 , p152.

(24) الزين محمد، المرجع السابق، ص 108.

(25) Watbled (E), « Aperçu Sur Les Premiers Consulats Français Dans Le Levant », R .Af, n°16, Alger, 1872, p23.

(26) حميد أيت حبوش، المرجع السابق، ص 70.

(27) للمزيد حول الأسرى المسيحيون في الجزائر. ينظر:

Berbrugger (A), « Captif et Patronne à Alger en 1640 », R .Af, n°8, Alger, 1864, pp 302-315.

de Haedo, « de La Captivité à Alger », R .Af, n°39, Alger, 1895, pp 54 a 258.

Violle (M), « de La Captivité à Alger par Fraya de Haedo », R .Af, n°39, Alger, 1895, pp 94 a 967.

Emerit (M), « Esclaves et Missionnaires en Barbarie 1672-1682 », R .Af, n°93, Alger, 1949, pp 38- 64.

(28) Haedo (F .de Diego), Topographie … , op .cit, p 490.

(29) de Paradis (V), Tunis et Alger…, op .cit, p 152.

(30) Berbrugger (A), « de l'esclavage Musulman en France », R .Af, n°1, Alger, 1856, p41.

(31) de Paradis (V), « Alger au 18 Siècle », R .Af, n°40, Alger, 1896, p 33.

(32) ibid, 33-34.

(33) جون ب وولف، المرجع السابق، ص207.

(34) de Grammont (H.-D), Histoire d'Alger Sous la Domination Turque (1515-1830), Paris, Ernest le Roux, Editeur, 1887, p 20.

(35) Devoulx (A), « Le Registre de Prises Maritimes », R .Af, n°16, Alger, 1872, pp70-77.

(36) de Paradis (V), « Alger au 18… », op .cit, pp 35 -36.

(37) , Tunis et Alger…, op .cit, p 153.

(38) , « Alger au 18… », op .cit, p37.

(39) , Tunis et Alger…, op .cit, p155.

(40) , « Alger au 18… », op .cit, pp 33-34-37.